الضمان الاجتماعي

مشروع بيفردج من ناحيتيه

التاريخية والاجتماعية

ما هو الضمان الاجتماعي؟

الضمان الاجتماعي عند السير وليم بيفردج هو النظام الذي يتحقق للجمعية البشرية بالقضاء على خمسة عمالقة هي : الخصاصة أي الحاجة، والمرض، والجهل، والقذارة، والتعطل أي الكسل. وعلى هذا فلا يتحقق الضمان الاجتماعي ما دامت هذه العمالقة تسيطر على الحياة الانسانية.

لما نشبت الحرب الأخيرة واشتبكت فيها أكثر شعوب أوربا، وقضت النازية والفاشية، إلى حين، على حضارة كثير من الأمم الصغيرة التي كانت تعيش في بحبوحة من العيش في ظل نظام ديمقراطي، وساد الفقر جماعات كانت تعد من أغنى جماعات الانسان وأقدرها على رفع مستوى الحياة، وانتشرت الأمراض الفتاكة، وتعطلت دور العلم عن أداء رسالتها، شعر سوآس الانجليز، وكان لهم أكبر الحق في أن يشعروا بحرارة، ان العالم مقبل على انقلاب خطير سوف يتناول أساس نظامه الاقتصادي الذي تقوم عليه كل مرافق المجتمع، وأن الضمانات التي كفلها هذا النظام في الماضي، لن تصلح لكفالة نظام اجتماعي ذي استقرار في المستقبل، أي في العصر الذي يلي انتهاء الحرب وعودة السلام. لهذا عهدت الحكومة البريطانية في شهر يونية سنة ١٩٤١ إلى سير وليم بيفردج أن يدلي برأيه في علاج الحالة الاجتماعية التي سوف تترتب على الحرب الحالية، فوضع تقريره المعروف، الذي أصبح اسم بيفردج علماً عليه.

لم تكن هذه الحرب السبب المباشر لقيام هذا الشعور عند سوآس الانجليز، وانما كانت حافزاً لهم على التفكير بجد في حالات المجتمع، كانوا يشعرون بأنها كائنة، ولكن معالجتها لم تكن عاجلة. وهم بذلك انما يكررون خطأ الذي وقع فيه المفكرون من قبلهم،

يكرّرون الخطأ الذي وقع فيه لويس السادس عشر وحكومته في فرنسا ، والخطأ الذي وقعت فيه القيصرية الروسية في أثناء الحرب الماضية ، فأدّى إلى هزّات عنيفة وثورات ، كان من الممكن أن توفر على الانسانية ما حملتها من فوضى ومن دماء ، لو أن ساسة الأمم قد بصروا بشيء من حقائق التطور القائمة من حولهم ، ونظروا لابد من أفرفهم قليلا ، ليدركوا أن ما تقضي به طبيعة الحياة لا بدّ من أن يكون . ولعلّ ساسة الانجليز في هذا العصر قد انتفعوا بتجاريب الذين سبقهم من السياسيين في مختلف الأمم ، فبادروا إلى وضع الشيء في موضعه ، فعهدوا ببحث أدواء المجتمع إلى رجل لم تسيطر عليه السياسة ، ولم تؤثر في عقله مماحكاتها ، فشقّ الطريق القويم إلى الغرض الأسمى ، وبحث المشكلات القائمة بعقل غير مدخول بأي اعتبار المهمّ إلاّ اعتبار ان الجمعية الانسانية تتطوّر ، وان فطرتها في الحياة تتسامى ، وان من حق كل فرد من أفراد الرعية أن يتخلص من حماقات الماضي التي سببتها سياسة أطلقت على الجماعات تلك الحماقة ، وأوردتها بالتصرف في مصاير الأمم .

لا أبالغ إذا قلت إنّ هذه هي المرة الاولى ، لا في انجلترا وحدها ، بل وفي جميع بقاع الأرض ، تنازل فيها السياسيون من عليائهم ، وأخضعوا كبرياءهم للحقائق . ذلك بمعنى أن الحكومة الانجليزية لم تعهد بهذا البحث إلى السياسيين المحترفين ، بل عهدت به إلى رجل اجتماعي درس الاجتماع من نواحيه القصية . درسه من حيث تطوره وانقسامه وانتاجه وقدرته على العمل ، فخرج من ذلك بآراء أصبحت دستور الاصلاح الاجتماعي في جميع بلاد العالم . دستور ضرب بعمول باتر في أصول الكثير من النظامات التي يخيل للسياسيين منذ عهد قريب انها أبدية ، وان الجمعية الانسانية قد وصلت في ظلالها إلى طابع من المدنية لن يتبدل .

كان من خطإ السياسيين في الماضي عقوقهم للعلم ، فاستأثروا بالرأي في كل ما يتعلق بالأمم من الأشياء التي يحسنونها والتي لا يحسنونها ، وتاريخ القرن التاسع عشر ، ناهيك بما قبله ، وتلك العقود التي سلخناها من القرن العشرين ، أكبر شاهد على هذا العقوق . كبر عليهم أن يستعينوا بالعلم والخبرة العلمية والنظر النافذ في حالات التطور التي تصيب الجمعيات في معالجة المشكلات المدنية ، فطاحوا بالكثير من مصالح الأمم ، وأوقعوا الشعوب في مأزق عصرتهم عصراً ، وتركتهم نهباً لغير نسيّ . وقد تناوبت هذه الحالات على شعوب الأرض المتمدينة المرة بعد المرة ، حتى ساد الناس شعور بالقلق والاستياء والحاجة إلى الاصلاح الواجب ، وأقسم جو المدنية بشعور عميق بأن عصراً من عصور المدنية قد آن اختتامه ، وأن الانسان يستقبل عصراً جديداً .

إن الحكمة التي أبداها سوآس الانجليز في أن يعهدوا ببحث أسباب ذلك القلق الاجتماعي إلى رجل اجتماعي خبير ، هي نفس الحكمة التي ينبغي أن تملي على كل الحكومات أن تعهد ببحث مختلف قضايا الاجتماع الى الذين يحسون بحقها بروح الحرية والاستقلال . ولو أن السياسيين قد شعروا بأن سيطرتهم على كل مرافق الأمم لمجرد أنهم سياسيين ذوي سلطان ، لا تستوي ونشدان الحقيقة التي لا يمكن بدونها أن يكون اصلاح ثابت ، إذن لمضت الانسانية تضرب في سبيل التقدم بقدم أثبت وخطى أوسع

نشكو في بلادنا هذه من الفقر ومن الجهل . فهل عهدنا بعلاج ذلك إلى الأيدي التي تحسن علاج الفقر والجهل ؟ ونشكو من المرض ومن التعطل ! ثم ماذا . ينبغي على رجال الحكم عندنا أن يقتدوا بما فعل الانجليز ، فلقد كانوا في ما فعلوا قدوة حسنة . وكل البلاد تشكو مما تشكو منه ، وربما كانت شكوى غيرنا أبلغ من شكوانا وبلواهم أعظم من بلوانا . ولكن المخرج من ذلك في أيدينا وأيديهم . ذلك بأن يعهد في بحث هذه المعضلات الى من ينظرون فيها نظراً حراً مستقلا بعيداً عما تملي السياسات على اختلاف نواحيها وعلى متباين نزعاتها . ينبغي أن يعهد بها الى رجال تحرروا من الأغراض ومن الشروات ، ونشدوا الخير العام وحده لا شريك له .

ان الأغراض التي يرمي اليها النضال الاجتماعي هي بذاتها الأغراض التي نشدها الانسان من أقدم العصور . هي المبادىء التي حاول أن يطبقها منذ إن كانت له مدنية . وما تلك الجهود التي بذلها وتلك المتاعب التي أنفقها في سبيل الحضارة سوى صور تشكلت فيها نزعته نحو الكمال الذي . نزعته تلك هي التي شيدت معابد الكلدان ومصر وهي التي أقامت مدارس أثينا والاسكندرية وجامعات أوربة ، وهي التي حفزته الى النهضة في القرون الوسطى ، وهي التي تدفعه الآن دفعاً نحو خطوة أخرى تدنيه من الكمال المنشود . غير أن مختلف تلك الجهود ، إن كانت قد أسلمت به إلى الطريق السوي ، فان خطراتها كانت وئيدة بطيئة لكثرة ما انتابها من أضارب النزعات والميول وتحكم الشهوات . ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا إن كل خطوة خطاها الانسان نحو ذلك الهدف ، تبعها انتكاس أودى بها في أكثر الظروف . ذلك بأن علم الانسان لم يكن قد شمل بعد مرافقه الاجتماعية ولم يكن قد تفاعل في البحث عن الأسباب التي تؤثر في ضمير الجماعة ، فشى الانسان في طريق مظلم معتم ، ومضى يتخبط متبعاً وحي كل هاتف يهتف به ، متلهفاً إلى ما يخيل إليه أنه يدنيه من مثالياته التي نشدها .

إن روح الانسانية ظلت في خلال العصور تنشد الكمال ، وكل العصور الاجتماعية التي توالت على البشر ، ما هي الا ثمرة تلك الروح المشبوبة القوية المتوثبة . روح سيبلها النفس

والعقل ، وغريزة التطلع الى ما هو أسمى . ولكن الانتكاس كان دائماً نصيب كل جهد انصرفت فيه تلك الروح . لقد بذلت الانسانية ما بذلت ، وأنفقت من تمار المال والروح ما أنفقت ، ولكنها ارتدت دائماً الى حيث بدأت . كان السبب في هذا أن العائلة الخمسة قد سيطرت على المجتمع ، فلم تترك له مفلتاً من مخالبها القاتلة .

***

على الرغم مما تتطلب هذه الحرب الضروس من مهام العمل واليقظة والاستمرار ، فان سواس الانجليز قد بذلوا أقصى الجهد في سبيل تنفيذ ما أوصى به عالمهم ، فأدّوا بذلك للعالم خدمة أخرى ، إذ كانوا أعظم قدوة وأسمى مثل ضرب للناس في هذا العصر . نعم استطاعوا أن يقضوا على الجهل ، فنفذوا بموافقة مجلسهم النيابي موافقة بالاجماع ، برنامجاً للتعليم يقضي على الجهل ، إذ جعلوا التعليم من نصيب الأولاد والفتيات عامة ومن نصيب كل الطبقات . وأدخلوا ذلك النظام في طور التنفيذ الفعلي . بل لقد قرأت لأحدهم قوله : ان تنفيذ هذا البرنامج التعليمي من أبهر الانتصارات التي ناطها الانجليز في هذه الحرب .

قضى الانجليز بذلك على العملاق الأول : الجهل ، وانصرفوا بعد ذلك إلى مغالبة العملاق الثاني : التعطل أو الكسل ، فعمدوا إلى نظام يضمن لكل انسان عملاً منتجاً ، وجعلوا انتاج الحاجات التي تسد غرض الحياة في البلاد أول همهم . ذلك بأن الأمة ما دامت تعمل في مجموعها ، استطاعت بذلك أن تقضي على الخصاصة وعلى الحاجة ، وتتصرف من هذه السبيل إلى العمل الذي يكون في ذمته خدمة اجتماعية ذات أثر ثابت في حياة الجماعة . ولم يغفل الانجليز عن العملاق الثالث : المرض ، فقد أخذت الحكومة تنفذ برنامجاً صحيًّا يشمل جميع أفراد الأمة على اختلاف طبقاتها . وما فعلوا ذلك إلا ليكون الاصلاح الصحي مقدمة للقضاء على العملاق الرابع وهو الحاجة أو الخصاصة ، فان الاصلاح الصحي ، يقضي بوضع نظام للتأمين عند التقاعد عن العمل . فمن الواجب أن يقوم هذا النظام على ، مقتضى المبادئ التي وضعت للضمان الصحي .

العملاق الرابع : الحاجة أو الخصاصة ، هو الآن في طريقه إلى الموت ، في صورة مرسوم بقانون تضمنه كتاب أبيض سيعرض على مجلس العموم . ولقد قدم ذلك المشروع كما وضعه بيفردج ، ما عدا بعض تنقيحات رأى المحبذون إلى ما أوصى به ذلك العالم المصلح ، وأساسه إدخال نظام التأمين القومي الجبري لكل طبقات الأمة ، بحيث يكون ذلك من حق كل فرد من المهد إلى اللحد ، وأن يكون التأمين شاملا ، بحيث يتناول كل مرافق الحياة الفردية

سيقوم هذا المشروع على أساس التأمين على التعطل لكل رجل وامرأة ، ولكل رجل مع زوجة لها كسب ، ولكل رجل مع زوجة لا كسب لها ، ولكل امرأة متزوجة ذات كسب ، ثم مخصصات لمن يعولون . وكذلك سيكون هناك تأمين ضد المرض والتقاعد ، ثم مخصصات للأمومة والموت ، وللأرامل والأيتام وللتعليم الصناعي والمهني ، عندما يكون الفرد متعطلاً عن العمل . وينص هذا المشروع على ان الحكومة تقوم بدفع مخصصات الأسر وتنفق على الأولاد تعليماً وتغذية ، وتوزع اللبن على الأطفال المحتاجين اليه ، وتؤمن العامل عما يحدث له من الاصابات أثناء العمل ، وتكفل له حياة مستقلة شريفة إذا تقاعد بسبب الاصابة .

وقد تبلغ نفقات التأمين الاجتماعي والمساعدة القومية ومخصصات الأسر والخدمة الصحية ٦٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيهاً من الجنيهات الانجليزية في السنة الأولى ، وسترتفع إلى ٨٣١٫٠٠٠٫٠٠٠ بعد ثلاثين سنة . وستدفع الخزانة من هذه المبالغ ٣٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ في السنة الأولى ثم تتدرج حتى تصير ٥٥٧٫٠٠٠٫٠٠٠ بعد ثلاثين سنة .

هذا طرف ضئيل مما يتضمن مشروع بفردج للضمان الاجتماعي . ولكنه كاف على كل حال ، ليظهرنا على الروح التي بعثته ، وإلى الحالات التي أدت اليه .

***

لماذا تقع الانقلابات الاجتماعية ؟ تقع الانقلابات الاجتماعية إذا تطورت الجماعات ووقفت النظامات العتيقة تحول دون خطى التطور أن تنبعث في طريقها المحتوم . وإذاً يكون كبح الانقلابات الاجتماعية هو بالعمل على مسايرة تلك الخطى التي تتطور فيها الجماعات وتتكون عنها فكرة في ضمائر الأمم ، بحيث تعالج بذلك العمل حالات ، هي التي تدفع إلى الانقلاب .

نظر فلاسفة الاجتماع الى حالات الانقلاب نظرتين مختلفتين : قال الأولون ان كل انقلاب خطأ : وقال الآخرون ان كل انقلاب صواب . نظرتان مختلفتان . بل هما تتحيان لا يلتقيان . ولكن الراقم يثبت أن كلاً من النظريتين لها في العقل ما يبررها . فالذين يقولون بأن كل انقلاب خطأ ، انما يحكمون بذلك على اعتقاد ان الانقلاب ليس مضمون العاقبة دائماً ، وقد يتولاه الانتكاس فيرتد الى عكس ما أريد به . هذا فضلاً عما يتطلب من التضحيات ، وما يسبب من الآلام . والذين يقولون بأن كل انقلاب صواب انما يحكمون بذلك على اعتقاد انه

ما من سبيل الى الافراج عن الرغبات المكبوتة بالقوة والوصول الى الاصلاح المنشود الاّ بتحطيم كل ما يقف في سبيل ذلك من العقبات . وكما ان للنظريتين ما يبرّرهما عقلاً ، فان لهما الى جانب ذلك فائدة أخرى ، هي ان ثبت من طريقهما أن التطور التدريجي قد يقضي على كل نزعة الى الانقلاب اذا أحسن القيام عليه ، وعهد بسياسة الأمم الاجتماعية الى الذين في مستطاعهم ان يدركوا ما تحفز اليه حاجات الناس من وجوه الاصلاح .

أما علاج حالات مجتمع كادت تصيبه فورة الانقلاب ، فسبيلها النظر في حقيقة بيفردج الحسنة : هل هي آخذة بخناقه ؟ هل هي تهد من كيانه وتكبح من رغباته وتشوّقه الى حالات أسمى وأنجح في الحياة ؟ لقد أوضح العلاّمة بيفردج الطريق ورسم النهج وأنار السبيل .

إن العالم في مخاض ، أما ما ستلد الأيام ، فذلك ما نكاد نحكم بأنه سيكون خطوة كبيرة إلى الأمام . خطوة تخلف العالم الاجتماعي أكثر استقراراً وأمناً ، إذا تولته الأيدي التي تحسن القيام عليه .

حديث ذو شجون

حدث أبو بكر بن دريد الازدي ، قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : رأيت بالبادية امرأة على راحلة لها تعرف سوءاً قد وهي تقول :

يا من شغلته زهى الدهر	قد كان فيك تفاضل الامر
فرحوا فقلت وما لهم خبر	كذبوا وقبرك ما لهم عذر
يا قبر سيدة الحيّ سماحة	صلى الاله عليك يا قبر
ما ضر قبراً فيه شلوك ساكن	أن لا يزر مزنه المطر
لو من سخاء يديك في الثرى	ويبورقن بقربك الصخر
واذا تعدت تصدعت قرة	منت الجبال وخانك الناعر
واذا وقفت فأنت منتهه	واذا انحنيت فوجهك البدر
والله لو لك لا أتيح لعدا	إلا بقطب ، اذ بي الوتر

قال فحفظت من الابيات ما شاء الله ، فاذا هي ميتة .

الامالي ص ٤١ : ١ ط أمينية